

كيف تبني الحضارة وتسان في فكر "مالك بن نبي"

د. لخضر حميدي

جامعة المسيلة

قد يحدث أحيانا أن نخطئ في حق أحد مفكرينا و يبقى هذا الخطأ لفترة زمنية ومكانيا ، لتأتي مراجعتنا لدواتنا ، فتعيد لهذا أو ذاك من أعلامنا ما له .

لكن أن يتواصل الخطأ نصف قرن أو يزيد فتلك هي الجريمة في حق الذات .

هذا ما يمكن أن نقوله عن (شاهد القرن) ، ألا وهو المؤسس للخط الحضاري الجزائري " مالك بن نبي " ، وهو الذي عاش حياة قاربت السبعين سنة كلها كانت داخل القرن العشرين . ولعل هذا الذي جعله يعتبر نفسه شاهدا على القرن الذي عاش ثلثه شاهد القرن الذي غيبه البعض ، ولم يفهمه البعض الآخر كان ضحية زمن مظلم وظالم عاش فيه .

فهل كانت أفكاره المتعلقة بالحضارة تحضى بالعناية الكافية لو طرحت في زمان آخر؟

أم أن حظها لم يكن ليلقى مصيرا مختلفا بسبب ذهنيات ما زالت مهيمنة لحد اليوم ؟

في هذا المقام المخصص لفيلسوف الحضارة نحاول أن نتعرف على مفهومه للحضارة ، وما الفرق بين الحضارة والثقافة عنده ؟

وكيف تبني الحضارة وتسان حسب " مالك بن نبي " ؟

وقد يقول البعض بأن هذا الموضوع قد أستهلك ، فإننا نجيب عنه بأن استمرارية تخلفنا تقتضي مواصلة البحث الدؤوب إلى أن نتجاوز هذا الواقع المزري .

شاهد القرن :

المقصود به " مالك بن نبي " رحمه الله ، ذلك المفكر الجزائري والمؤسس للخط الحضاري ، وهو من مواليد 1905 ، حيث انتقل إلى جوار ربه يوم 31 أكتوبر 1973 . كانت حياته كلها داخل القرن العشرين .

ولعل هذا هو الذي جعله يعتبر نفسه شاهدا على القرن العشرين الذي عاش ثلثه . ترك وراءه مدرسة فكرية متميزة بنظراتها العميقة والدقيقة للإنسان والكون والحياة . وبكل أسف رغم أن الرجل جزائري إلا أن بصماته الفكرية قد تركها وبدأت آثارها واضحة في المشرق العربي كدمشق وبيروت والرياض ، حيث حمل العديد من الباحثين أفكاره نذكر منهم (جودت الصعيد - خاص جلي - عماد الدين خليل - عمر عبيد حسنة - طه جابر العلواني ... وغيرهم) .

إن التطور التكنولوجي المذهل الذي يعيشه رجل العولمة حاليا زاد من اختلاط الأمم في أفكارها ، وفي نظمها الخاصة بحياتها وحتى في عاداتها وتقاليدها ، وما يطرأ عليها من تغيير . ناهيك به عن معرفة اللغات والتطلع إلى دراسة الثقافات الحالية والماضية لدى الأمم على اختلافها وتباين اتجاهاتها فيما مضى .

إن استقراءنا للواقع يجعلنا نقول بما لا يدع مجالا للشك بأن العالم الاسلامي يكاد يكون بمثابة المكان الذي تكتمل فيه مصادر الثروة للإنسان . وهذا ما يفسر كونه هدفا لسطو المغتصبين ، ومختلف القوى السياسية العالمية التي تسعى للاستغلال الاقتصادي في عهد التقدم التكنولوجي الرهيب .

ومن أجل ذلك يمكن أن يقال : ان المركز الجغرافي والاقتصادي الذي يتميز به العالم الاسلامي هو العامل الأول في التقاء الايديولوجيات المعاصرة وتزاحمها بل وتنافسها على التثبيت بالبقاء فيه ثم لم لا السيادة عليه ، وعلى ثرواته . متجاهلا بذلك روح التحدي وروح المقاومة الموجودة لدى الإنسان العربي المسلم مما تمخض عن ذلك ما يسمى بـ " الصراع الحضاري " ، وإن كان البعض الآخر قد فضل في السنين الأخيرة مفهوم " حوار الحضارات " .

والدليل على ذلك أن الجيل الحاضر من أبناء أمتنا العربية والاسلامية يعيش مظاهر الاستيلاء في صورها المختلفة ، فهو موزع بين الانتماء إلى عقيدة موروثية يحرص على الانتساب إليها ، إلا أنه لا يعرف الطريق إلى تجليتها أو الاقتناع بها في داخل نفسه . وبين ايدولوجيات يوحى بعضها بالإغراء ، والبعض الآخر بتسلط حكامها الذين لا يهمهم كل شيء ما عدا شهوة الحكم وجاه السلطة . ولنا في تاريخنا عبرة . فبعدما كنا في مراتب القيادة نتبوء مقعدنا الحضاري صرنا تابعين لغيرنا .

وعلى هذا الأساس كان بزوغ نهضة فكرية ابتداء بالحركات الاصلاحية في المشرق العربي على يدي " جمال الدين الأفغاني " و " محمد عبده " وغيرهم ، وفي المغرب العربي بقيادة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بقيادة الشيخ العلامة " عبد الحميد ابن باديس " وفيلسوف الحضارة الجزائري مالك بن نبي " مسألة حتمية .

هذا الأخير الذي حمل على عاتقه معالم رسم الخط الحضاري في الجزائر، مبينا كيف أن الحضارة ليست حكرًا على أمة بعينها ، وموضحا أيضا كيف أن الأمة التي تتنكر لفكرها الروحية مصيرها الانحطاط وحتى الزوال.

هذا الانحطاط يرجعه البعض إلى الحضارة في حد ذاتها، في حين يذهب البعض الآخر إلى القول بنقص في الثقافة مما انبثق عن ذلك التباس واختلاط بين المفهومين (الثقافة والحضارة) .

فهل الثقافة تعني الحضارة ؟ أو العكس وما طبيعة العلاقة بينهما ؟

لقد تناول الكثير من المفكرين هذه المسألة ومن هؤلاء فيلسوف الحضارة المفكر الجزائري "مالك بن نبي" رحمه الله .

فما مفهومه للحضارة ؟

وما الفرق بينها وبين الثقافة ؟

المعروف عند العوام أن المقصود بالمتقف هو ذلك الإنسان الذي يعرف أمورا كثيرة من غير أن يكون متعمقا في واحد منها. فالثقافة إذن في هذا السياق هي سعة الاطلاع وشموليته وتنوعه من غير عمق وتخصص . وهذا المفهوم العام للثقافة لا نجده واحد عند الجميع ، بل هو يختلف باختلاف ثقافة كل واحد من الناس. فالواحد منا يتخذ نفسه مقياسا لغيره وبالتالي يجعل من ثقافته إطارا لتحديد مفهوم الثقافة في علمه الخاص بحيث يعتبر الشخص الواحد مثقفا عند هذا وغير مثقف عند ذاك ، فلا يكون لدينا مفهوما واحدا لثقافة يتفق عليها جميع الناس ، بل يكون لدينا عددا من المفاهيم مساويا لعدد من الناس ، أو لعدد كبير من الفئات على الأقل ومن هنا يتبين أن المفهوم الشائع للثقافة ناتج عن تصورات ذاتية لا يعبر عن حقيقة الثقافة التي ينبغي أن لا تتغير بتغير من يتصورها .

أما المفكر الجزائري "مالك بن نبي" فيلسوف الحضارة فقد عرف الثقافة بقوله: " مجموعة من الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التي يلقاها الفرد منذ ولادته كراشمال أولي في الوسط الذي ولد فيه والثقافة على هذا هي المحيط الذي يشكل الفرد طباعه وشخصيته " (1) . والمتأمل لهذا التعريف يلاحظ كيف أن الثقافة عند "بن نبي" ليست هي جملة المعارف العلمية كالمعارف الرياضية والفيزيائية وغيرها والتي يتلقاها الطلبة في مقاعد الدراسة، بل جملة قيم ومبادئ. ولتوضيح ذلك ضرب لنا "مالك بن نبي" بمثال عن الطبيب الانجليزي والراعي الانجليزي فعلى اختلافهما في الوظيفة والعمل ينتميان إلى مجتمع واحد معين ، واختلاف سلوكهما ناتج عن الثقافة لا عن العلم . ومن هنا فالثقافة هي كل ما يعطي الحضارة سميتها الخاصة، والتي تميزها عن غيرها من الحضارات الأخرى.

وإذا كان لكل ثقافة خصائصها الخاصة، فإن لكل حضارة أيضا سماتها التي تتجلى بها والتي تميزها عن غيرها من الحضارات الأخرى. ولعل الصراع الحضاري الحالي الذي يعيشه العالم في نظري البعض هو في ماهيته صراع حضاري تمتد جذوره إلى المراحل التاريخية الماضية الضاربة في أعماق التاريخ نفسه ونستشف ذلك من خلال استقراءنا للتاريخ نفسه. فلقد اهزمت حضارتنا في أغلب الميادين أو فيها كلها، وتساقطت بلادنا بلدا بلدا تحت أقدام الغزو الحديث. ولم يكن بد من هذا المصير الكئيب، فقد كانت حضارتنا ضعيفة بالغة الإعياء وكان خصومها أقوىاء شديد البطش.

311

أما فيلسوف الحضارة المفكر الجزائري الكبير "مالك بن نبي" رحمه الله فقد حاول إبراز ووضع معالم الإنذار على المطبات التي تمنع السير حثيثاً في طريق الحضارة الطويل المليء بالمخاطر. " وهذا من خلال تصحيحه لمفهوم الحضارة - خاصة بعد أن أتيحت له الفرصة في باريس لتعرف على مشكلات أمته والتي كانت صورة مكبرة عنها علاوة على ذلك كان على دراية كبيرة واسعة بأعماق الحضارة الغربية وأسرارها ، وزواجه من فرنسية ، وتضلعه في اللغة الفرنسية ، كل هذه العوامل جعلته رحمه الله شاهد القرن ، وفيلسوف الحضارة بحق وعن جدارة .

على هذا الأساس يعتبر "مالك بن نبي" رحمه الله من الذين أحدثوا نقلة نوعية في الفكر الحضاري الإسلامي الحديث، وأن المنصفين من المثقفين يعترفون فعلاً بهذه النقلة النوعية التي أضافها "مالك بن نبي" ألفاظاً وتعبيرات مبتكرة وفلسفة وأفكاراً مبتكرة. فكيف تبين الحضارة حسب "مالك بن نبي" ، وكيف تصان ؟

وما العلاقة بين هذه الحضارة الإسلامية وغيرها من الحضارات الأخرى ، خاصة الحضارة الغربية ؟ يرى "مالك بن نبي" بأن مشكلة أي شعب أو أمة هي في جوهرها مشكلة حضارة ، ولا يمكن للشعب أن يفهم أو يحل مشكلته ما لم يرتفع بفكره إلى الأحداث الإنسانية ، وما لم يتعمق في فهم العوامل التي تبين الحضارات أو تهدمها ، مركزاً بالدرجة الأولى على بناء الإنسان أو ما يسميه هو بـ "الإنسان الجديد" والذي يعتبره محور أي إقلاع حضاري . وفي هذا يقول :

"فالشخص في ذاته ليس مجرد فرد يكون النوع وإنما هو الكائن المعقد الذي ينتج حضارة وهذا الكائن هو في ذاته نتاج الحضارة، إذ هو يدين لها بكل ما يملك من أفكار وأشياء" (3).

وبذلك يعتبر فيلسوف الحضارة أن الإنسان رأسمال أولي في أية عملية بناء للحضارة ، إذ لا حضارة بدونه . ولكن الواقع يثبت أن مفهوم الحضارة ينتابه نوع من الغموض أحياناً، بل ومتداخل أحياناً مع الثقافة عند البعض كما سبق وأن أشرنا إلى ذلك سابقاً.

لقد عاش "مالك بن نبي" في باريس تجربة غنية بالتعرف على مشكلات أمته التي كانت صورة مكبرة عن مشكلات وطنه ، فانغمس في النشاط الفكري والسياسي في أوساط المغتربين - طلبة وعمالاً - ابتداءً من أول محاضرة ألقاها في أواخر ديسمبر 1931 بعنوان "لماذا نحن مسلمون" التي جاء رد فعل السلطات الفرنسية عليها سريعاً ، فقد استجوبه البوليس الفرنسي ، وتم نقل والده من وظيفته الصغيرة في تبسة إلى مكان آخر ، ورجب "لويس ماسينيون" مهندس السياسة الفرنسية للشؤون الإسلامية في رؤيته ، مما جعله يعيش الحضارة الغربية في روحها وأفكارها، لا في قشورها، كما يفعل الكثير من المثقفين التغريبيين المسلمين.

لقد دخل "مالك بن نبي" إلى لب الحضارة الغربية أو المسيحية من عدة أبواب هي:

- 1- باب العلوم التي يقول عنها : أسكنت في نفسي شيطان العلوم
- 2- باب وحدة الشبان المسيحيين التي أتاحت له عقد الصلة بين القيم الاجتماعية والتقنية ، التي كان يشاهدها ويتذوقها في الشارع وفي المدرسة وربما كشفت له تلك الملاحظات عن جوانب في روحه المسلمة .
- 1- باب زوجته وأسرقتها
- 2- باب المنطق المسيحي بما يتخلله من تعقيد .(4).

هذا الفهم الدقيق لروح الحضارتين الإسلامية والغربية ، والاستيعاب العميق لأسسها الفكرية مكنا "مالك بن نبي" من الصمود في وجه الحضارة الغربية فلم يجرفه تيارها الذي جرف كثيراً من مثقفي العالم الإسلامي ، الذين تراهم يعانون مركب النقص نحو الثقافة الغربية ، وتحرر من عبودية ذات وقع أثقلت ، أو ما تزال تثقل غالباً فكر المثقفين العرب تجاه عبقرية أوروبا وثقافتها وهذه التجربة العميقة والعنيفة بأبعادها الروحية والفكرية والاجتماعية جعلت "مالك بن نبي" يعلم علم اليقين أن المسلم بعقيدته الموحدة وفكره المنفتح على العقل منذ بدايته وهي "إقرأ" وروحه الاجتماعي من مساواة وتضامن ، وأخوة ... أقدر على مواجهة الحضارة الغربية، والانتصار عليها، ولكن المشكلة في المسلمين بالدرجة الأولى .

هذا الإنسان عليه بالشروع في الحركة من خلال الفكرة التي يحملها، وهذه الحركة عنده مرتبطة بوضع ذي عناصر ثلاث:

1- حركة مستمرة

2- إنتاج دائم لأسبابها

3- غايتها (5).

ويقصد بذلك تلك الجماعة (المجتمع) التي تتغير دائما خصائصها الاجتماعية بإنتاج وسائل التغيير مع علمها بالهدف الذي تسعى إليه وراء هذه الحركة.

وبطريقة أخرى فإن هذه الحركة حسب " بن نبي " تقوم على عناصر ثلاث هي كالتالي:

* حركة يتسم بها المجموع الإنساني

* إنتاج لأسباب هذه الحركة.

* تحديد اتجاهها (6).

كما وضح "مالك بن نبي" أثر هذه العناصر الثلاث التي تصون تحقيق الأمة لبناء صرح حضارتها محددًا إياها كالتالي:

- تأثير عالم الأشخاص بهدف تحقيق غاية .

- تأثير عالم الأفكار من خلال وضع نموذج إيديولوجي.

- تأثير الأشياء وذلك بتوفير جملة من الوسائل (7) .

والمأمل لهذه العناصر الثلاث سيكتشف بأن العلاقة بينها حسب (بن نبي) ليست علاقة جمع كما يبدو للوهلة الأولى أو لذوي النظرة السطحية، ولكن هي علاقة تفاعل وحركية، والتي تتركب في ظرف استثنائي تحت عامل البذرة الدينية.

هذه الأخيرة هي التي تجعل عناصر وشروط الحركة تتفاعل فيما بينها.

وهكذا نجد "مالك بن نبي" لا يقتصر في مفهومه للحضارة على الجانب المادي أو الاقتصادي فقط ولوحده مقارنة بالماركسيين في تفسيرهم المادي للتاريخ ، بل وحتى بعض العلمانيين .

صحيح إن العوامل الاقتصادية تفعل فعلتها في أي إقلاع حضاري ولكن أن تتوقف عليها الحركة لوحدها فهذا ما لم يقل به "مالك بن نبي"، بل منح لكل عنصر قيمة في ذاته ، وفي حدود معينة ، مبينا كيف أن أول عمل يقوم به هذا المجتمع أو ذاك في حركته النهضوية مشروط بتحديد ماهية شبكة العلاقات الاجتماعية حيث قال فيلسوف الحضارة في ذلك:

<< إن شبكة العلاقات الاجتماعية هي العمل التاريخي الأول الذي يقوم به المجتمع ساعة ميلاده >> (8).

وهكذا نرى أن تماسك النسيج الاجتماعي عند "مالك بن نبي" وتلاحم وتأزر أفراد المجتمع عاملاً أساسياً من عوامل الإقلاع الحضاري ، والعكس لا قدر الله إذا كان هذا النسيج الاجتماعي ممزقاً ، ضعفت قدرة المجتمع وخارت قواه ، وتكالبت عليه الأمم والشعوب ، وهو ما نشاهده هذه الأيام في عالمنا العربي والإسلامي ، لا شيء إلا لكونه تنكراً لفكرته الروحية وماهيته الحضارية . وقد كان سيد الخلق الرسول (صلى الله عليه وسلم) قد نبهنا إلى ذلك في قوله :

(يوشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها ، قالوا أو من قلة نحن يومئذ يا رسول الله ، قال لا بل أنتم كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، وليزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم وليقذفن في قلوبكم الوهن قالوا وما الوهن يا رسول الله: قال حب الدنيا وكراهية الموت) * .

ولعل واقع العالم الإسلامي اليوم خير دليل على ما نقول ذلك أن دم بل وروح المسلم هي أرخص روح ودم.

"ولو عاد صاحب الرسالة والحضارة إلى الأرض في ذلك العصر ورأى ما كان يدعى على الإسلام لغضب وأطلق اللعنة على من استحقها من المسلمين كما يلعن المرتدين وعبد الأوثان". (9).

ويهدف مواكبة المعاصرة ومحو الصورة السلبية المقيتة التي كونها الإنسان الغربي عن عقيدتنا وجه "مالك بن نبي" نصيحة للعالم الإسلامي بقوله:

(إذن فنهضة العالم الإسلامي، ليست في الفصل بين القيم، وإنما هي في أن يجمع بين العلم والضمير، بين الخلق والفن، بين الطبيعة وما وراء الطبيعة حتى يتسنى له أن يسير عالمه طبقاً لقانون أسبابه ووسائله وطبقاً لمقتضيات غايته) (10).

وهذا يعني أن فيلسوف الحضارة لم يتجاهل في تحديده لمفهوم الحضارة وبنائها أي عنصر من العناصر العلمية والثقافية المختلفة والمتشعبة كالنفس والأخلاق والعلم وغيرها.

هذا الأخير (العلم) كما هو معروف نور يجعله الله في قلب من يشاء من عباده، وهو كما قال الإمام "مالك بن أنس" رحمه الله: (ليس بكثرة الرواية ولكنه نور يجعله الله في القلوب، والنور من شأنه أن يضيء الطريق فيسلكه على بصيرة، وينتهي به إلى نهاية حميدة) (11).

كما أن العلم ثمرته العمل، فقد روي عن الإمام علي رضي الله عنه قوله: ("ولو عاد صاحب الرسالة والحضارة إلى الأرض في ذلك العصر ورأى ما كان يدعى على الإسلام لغضب وأطلق اللعنة على من استحقها من المسلمين كما يلعن المرتدين وعبداء الأوثان". (11)).

يا حملة العلم اعملوا به فإنما العالم من علم ثم عمل ووافق علمه عمله)

وكان "سفيان بن عيينة" رحمه الله يتمثل بالبيتين التاليين :

إذا العلم لم تعمل به كان حجة عليك ، ولم تعذر بما أنت جاهله (12)

إن مشكلتنا الحالية هي المبالغة والمغالاة في مجال على حساب مجال أو مجالات أخرى بل وحتى إلى درجة الغلو أحياناً ، رغم أننا أمة الوسطية بصريح النص القرآني في قوله تعالى:

(وكذلك جعلناكم أمة وسطاً) * . ورحم الله أستاذي المفكر الجزائري وعالم الاجتماع الجزائري الدكتور "عبد الله شريط" حينما رأى في واحد من كتبه الشهيرة ، ألا وهو كتابه (معركة المفاهيم) من خلال طريقته الحوارية المعروفة والجادة والمهادفة إذ يقول:

(إننا إما أن نذهب إلى الصاروخ أو إلى المئذنة. قلنا وقد بلغ به الانفعال أشده. وكانت المناقشة قد طالت وحاول أثناءها أن لا ينفعل. . وأنت حاول أن تفهمي: إنني لست محافظاً بالقدر الذي تتصور .

قد يهمني أكثر منك أن نذهب إلى الصاروخ ولو لم نذهب إلى الصومعة.

لكن مشكلتنا هي أننا لم نذهب لا إلى الصومعة، ولا إلى الصاروخ، وإذا كنت تأسف لكون مدن العالم العربي مزروعة بالمآذن أكثر مما هي مزروعة بمداخل المصانع، فإنك هنا أيضاً على خطأ. المآذن بناها الأموات أولاً، وقد توقفنا عن بنائها منذ أن توقفنا عن البناء جملة.

ويواصل عالم الاجتماع الدكتور "عبد الله شريط" قوله قائلاً:

(ونحن اليوم كما توقفنا عن مليء المساجد بالمصلين توقفنا عن مليء المصانع بالعمال والآلات. إن الأماكن الوحيدة التي تملؤها في الوقت الحاضر هي المقاهي . وأنت يا سيدي لا تظن أنني أقوم الإسلام بالتأخر ، بل أقوم المسلمين وقال "شكيب أرسلان" منذ نحو نصف القرن قال : (إن الإسلام شيء آخر) (13).

أما عن العامل الخلقي في بناء الحضارة فقد بين الدين الحنيف أهميته في مخاطبة الله لرسوله : (وإنك لعلی خلق عظیم) ، ناهيك عن تأكيد العلماء والأدباء لهذا العنصر الأخلاقي . فهذا هو أمير الشعراء "أحمد شوقي" : يقول :

وإذا أصيب القوم في أخلاقهم فأقم عليهم مأتماً وعويلًا

لكن لا بد من القول بأن ثمة عوامل شتى تتدخل كاليبت والمدرسة والأصدقاء على اعتبار أن كل قرين بقرينه يقتدي، وشؤون الصحة والمرض والفقر والغنى والأمن والقلق، والحر والبرد، وما نقرأ من صحف وما نسمع من أنباء، وما نشاهده على الفضائيات... الخ.

ورحم الله الشيخ "محمد الغزالي" الداعية الإسلامي الكبير حينما قال :

(إنني أحيانا فاجتهد أن أستمع إليه وهو يهمس حتى أتبين ما يقول وحدي قبل أن تخرق أفتح الراديو مسامع الأطفال الأبرياء ، أحياناً أنثى لدعها الهجر أو صب أضناه الهيام . والغريب أن البرامج الآن أخذت تعرض روايات مسلسل تتخللها أحداث دامية وفصول مهيبة ، وذلك كله إغراق في اللهو ، لا بل هو إغراق في شغل الأذهان بالهراء وصرفها عن الجد والإنتاج) .
ويواصل الشيخ "محمد الغزالي" كلامه قائلاً :

(وما نظن أن هناك أبا يحترم نفسه ويحترم أسرته يقبل أن يستقبله أطفاله وهو يدخل من الباب بألفاظ وتحيات ونبرات يلتقطونها من لغة المجرمين التي تجري في الإذاعة على ألسنة من لغة المجرمين التي تجري في الإذاعة على ألسنة (سمارة) و (المعلم سلطان) و(دنجل) و (السيد أبو شقة) ... إلخ . كما أننا لا نظن أن هناك نفوساً يشجها الطرب تستسيغ سماع تلك الآهات والأنات الجنسية القدرة التي ينكبنا بها حضرات المغنين والمغنيات في إذاعتنا الموقرة حتى ليخيل إلينا أنه قد حان الحين لكي تتحرك النيابة العامة فتعمل على حماية المجتمع من هذه الكوارث) (14).

كما يعتبر الفن أيضاً جزءاً من الحضارة عند "مالك بن نبي" خاصة في زماننا هذا وذلك لما له من قيمة بالغة الأهمية في دفع الإقلاع الحضاري إلى الأمام لهذا المجتمع أو ذاك ، وقد قيل (أعطيني مسرحاً أعطيك شعباً) .
وما ينطبق على المسرح ينطبق على مختلف مجالات الحياة الثقافية أو السياسية أو الاقتصادية.

إننا للأسف الشديد نجد الكثير من المثقفين اليوم ورجال السياسة في الوطن العربي والإسلامي ومن بينهم جزائريون يجهلون رسالتهم الحضارية فهم دائماً في نظرهم للحضارة حماسيون عاطفيون أحياناً ، مستلي الشخصية أحياناً أخرى نتيجة لخلفيتهم الثقافية الغربية التابعين إليها بقصد أو بغير قصد .

وحتى السياسة جزء من الحضارة في نظر "مالك بن نبي" حيث يقول :

(وما السياسة في جوهرها إلا مشروع لتنظيم التغييرات المتتالية في ظروف الإنسان وأوضاع حياته، هذه العلاقة التي تحدد وضع الفرد باعتبار غاية كل سياسة ، تعتبر الفرد عاملاً لتحقيق تلك الغاية) (15) .

والمقصود بذلك حسب "مالك بن نبي" أن الفرد يصبح وسيلة وغاية في نفس الوقت للسياسة وبذلك تهدف السياسة في نظره إلى تحقيق هدفين:

تتوجه السياسة للفرد بصفته هو الفاعل الذي يحقق التغييرات المطلوبة

وبصفته هو الموضوع المطلوب تغييره.

وهذه السياسة المطلوبة تقوم على مبدئين :

أن تتبع سياسة تتفق ووسائلنا. (16)

وقوله أيضاً: (السياسة لا بد لها أن تكون أخلاقية، جمالية، علمية، كي يكون لها معنى في مسيرة التاريخ) (17).

ومن هنا يجب الحث على طلب مختلف العلوم ، وصيانة الأخلاق ، وتوجيه الفن توجيهاً نابعاً من طبيعة حضارتنا ، ولذلك كان "بن نبي" رحمه الله يرى بأن هناك عناصر ثلاث مركبة للثقافة وهي :

التوجيه الجمالي، المنطق العملي ، التوجيه الأخلاقي. حيث نلجده يقول :

(والإطار الحضاري بكل مقوماته متصل بذوق الجمال بل إن الجمال هو الإطار الذي تتكون فيه أية حضارة فينبغي أن نلاحظه في نفوسنا وأن يتمثل في شوارعنا وبيوتنا ومقاهينا ، مسحة الجمال نفسها التي يرسمها مخرج رواية في منظر سينمائي أو مسرحي . إن

الجمال هو وجه الوطن في العالم، فلنحفظ وجهنا لكي نحفظ كرامتنا ونفرض احترامنا على جيراننا الذين ندين لهم بنفس الاحترام (18).

أما اقتصاديا فقد أدرك فيلسوف الحضارة أن الاقتصاد عصب الحياة وهو أيضا جزء أساسي في بناء صرح الحضارة . ولهذا ركز في معادلته على التراب بما يحتويه من ثروات طبيعية، بل وحتى الاستعمار أدرك أن أسلوب العصا الغليظة لم يعد يجدي نفعا بشكل مطلق في زماننا هذا لاحتلال مواقع في أصقاع الكرة الأرضية فغير مظهره بترع ثوبه الكلاسيكي "الحملات العسكرية" مرتديا ثوبا آخر جديد هو الثوب الاقتصادي .

وقد حاول العالم العربي والإسلامي النهوض في هذا المجال مقتديا بالمعسكرين الغربي والشرقي ، إلا أن الواقع أثبت بعدهما عن طبيعة وكنه حضارتهم العربية الإسلامية .

والدليل على ذلك فشل الحضارتين معا في إقامة حياة اقتصادية متوازنة ، فلا هؤلاء ولا أولئك أطعموا الشعب من جوع أو أغنوه من فقر أو أخرجوه من ظلمات الجهل.

(وما زلنا نستورد القمح والحبوب من خارج أرضنا وإلا هلكننا جوعا، وهكذا صرنا نعتمد على غيرنا في جلب الطعام الذي به عيشنا ، والسلاح الذي نصون به حياتنا وكرامتنا .

لقد فشلت الليبرالية والاشتراكية في الرقي بالمجتمع من التخلف إلى التقدم ولم تستطع لا هذه ولا تلك أن تنقل المجتمع من الاعتماد على الغير إلى الاكتفاء الذاتي بالاعتماد على الذات ومن استيراد مصنوعات الحضارة إلى إنتاجها ومن شراء السلاح إلى صناعته ، ومن رواية العلم أو ترجمته إلى المشاركة فيه (19).

ولتوضيح حقيقة وماهية حضارتنا وخصائصها التي تتحلى بها والتي تميزها عن غيرها ضرب لنا "مالك بن نبي" مثالا للدكتور الألماني "شاخت" والذي وضع مخططا لبلده ألمانيا ولأندونيسيا فنجح هذا المخطط في ألمانيا ولم ينجح في أندونيسيا وهذا لأن الدكتور "شاخت" لم يأخذ بعين الاعتبار ما يسميه "مالك بن نبي" بالمعادلة الاجتماعية والتي يمكن تعريفها مقارنة بالمعادلة البيولوجية (20)، والتي تسوي بين الناس وهي هبة من الله لعباده .

أما المعادلة الاجتماعية فهي تختلف من مجتمع إلى آخر، بل وحتى داخل المجتمع الواحد من منطقة إلى أخرى. إلا أن فيلسوف الحضارة رأى بان عالم الأشياء هذا لا يؤدي دوره إلا بالعوامل الأخرى "عالم الأفكار" و "عالم الأشخاص" تحت دافعة الفكرة الروحية .

لذا حدد "مالك بن نبي" شروط الحركة الاقتصادية والتي هي جزء من الحركة الحضارية كالتالي:

1- لقمة العيش حق لكل فم .

2- العمل واجب على كل ساعد .

وتحقيق طرقي هذه المعادلة يتوقف على ما يسميه (بن نبي) ب "الإرادة الحضارية" والتي تصنع الإمكان الحضاري اجتماعيا .

إن الإرادة تكشف الإمكان . وهذا القانون في المجال الاقتصادي هو في المجال النفسي ما تشير إليه الآية الكريمة "إن الله لا يغير ما يقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم"*

وهو أيضا ما عبر عليه في الحياة الاجتماعية بالقول :

"إن الإرادة الحضارية تصنع الإمكان الحضاري"

- فالوطن أو المجتمع المسلم كما يقول "مالك بن نبي" الذي يتحول إلى ورشة ، سرعان ما يكتشف أن الإمكان الذي ينتظره مما في يد الغير لتغيير مصيره ، هو في يده الآن (21).

وعلى هذا الأساس فالحضارة عند فيلسوف الحضارة "مالك بن نبي" يتمثل في جملة الشروط الروحية و المادية ، والتي تعمل على تطور الإنسان وجعله فعالا في التاريخ لأن -الشخص كما يقول "مالك بن نبي"

>> هو في ذاته ليس مجرد فرد يكون النوع وإنما هو الكائن المعقد الذي ينتج حضارة وهذا الكائن هو في ذاته نتاج الحضارة ، إذ هو يدين لها بكل ما يملك من أفكار و أشياء << (22).

إذا الحضارة كل متكامل عبارة عن جسم كائن حية لا يمكن بتر أحد أعضائه ، وكل إهمال أو عزل لجزء من أجزائها أكانت مادية أو روحية يعيق الإقلاع الحضاري لهذا المجتمع أو ذلك.

إن المجتمع الذي يفهم حقيقة وكنه حضارته حتى وإن تعثرت به الأيام ، وحاول التاريخ أن يتنكر له سرعان ما يلبث أن يكتشف ماهيته فيشرع في الإقلاع الحضاري من جديد ليتبوأ مقعده بين الأمم من جديد .

والدليل على ذلك حسب "مالك بن نبي" التجربة اليابانية ، والتي تعتبر في الحقيقة حسبه خير دليل على ذلك ، فبعد الحرب العالمية الثانية ، وما انبثق عنها من دمار وخراب ، وما عرفه وعاشه من زلزال عنيف (تسونامي) ومع ذلك نراه صامدا شامخا يقاوم الطبيعة رغم قوتها ، محافظا على مكانته ضمن (السبعة الكبار في العالم (Les G7) .

وتتصور لا قدر الله لو ضرب هذا الزلزال دولة عربية أو دولة إسلامية فكيف يكون الحال يا ترى ؟

لقد نهضت اليابان نهضتها المعروفة وأخذت تنافس كبرى الدول الأوروبية في شتى ميادين الصناعة والعلم ، فهل كلفها ذلك أن تتجرد عن شيء من طقوسها الدينية ، أو ما تؤمن به من مقدساتها التاريخية .

صحيح إن فعل الحضارة فعل نام متحرك كالكائن الحي تولد ثم تجبو طفلة طرية العود ، حتى إذا اشتد ساقاها وأنيعت ، بدأ عهدها المزدهر أو شبابها المعطي ، وتكون في هذا الطور في إبان خصبتها . فإذا استنفذت طاقتها المخزونة بدأت تنحدر نحو الهرم والشيخوخة ، وبدأ عطاؤها يشح وينضب إلى أن تنقرض .

هكذا إذن يبدو أن "مالك بن نبي" كان في الحقيقة واقعيا إلى أبعد الحدود ، كما كان معجبا أيضا جدا بالتاريخ ، ذلك أن همه في النهاية لم يكن تسجيل الحوادث في حد ذاتها فقط ، وإنما فهم أسبابها ومسبباتها ودواعيها ونتائجها . ومن هنا فالتاريخ بالنسبة إليه هو الكاشف الحقيقي عن القوانين التي تنشأ الحضارات أو تميتها ، وكيف يتحقق هذا الكشف ما لم ينطلق من التاريخ ، أي من سجل الحضارات .

لكن فيلسوف الحضارة عالج حالة الضعف وحالة القوة بنظرة المتبصرة ، فحالة القوة كما يرى هو تطرأ على النفس عندما يكون الضمير الانساني قد استطاع أن يتحدى في المجال الأخلاقي كل قوة موازنة له ، وأن تحدي أي عارض وأي حالة طبيعية تتماشى معها استجابة نفسية عن الدوافع التي تميز النفس الإنسانية . وهي بالتالي استجابة رضى الضمير من النفس فتشتد عند الانسان وتزداد نفسه قوة ونشاطا .

أما في الحالة الثانية التي يضعف فيها الضمير فنلاحظ أنه يضعف نتيجة لضعف يصيب القوى النفسية ، بمعنى أن الدوافع النفسية تصبح مشلولة مما ينجم عنها ضعف في كل شيء حتى اخلاقيا ، فإن الضمير يكون أيضا ضعيفا . وهكذا يكون التحدي بمقدار ضعف هذه الاستجابة ، وبطريقة أخرى لا تكون هناك استجابة بل مجرد فعل آلي لا يتولد عنه شيء ، وفي ذلك يقول :

>> فإن تطور الجماعة يؤدي بها إلى شكل راق من أشكال الحياة الاجتماعية وإما أن يسوقها على عكس ذلك إلى وضع متخلف << (23) . ويقول أيضا :

>> فالجماعة الإنسانية لا تكسب صفة المجتمع إلا عندما تشرع في الحركة ، أي عندما تبدأ في تغيير نفسها من أجل الوصول إلى غايتها ، وهذا يتفق من الوجهة التاريخية مع لحظة انبثاق حضارة معينة << (24).

وما يمكن أن نقوله في الأخير بعد هذا العرض أن "مالك بن نبي" لم يكن يؤمن بذلك الدين الكاذب الذي كان سائدا في الأوساط الاجتماعية المختلفة ، والذي هو ملكي عند الباشوات وأسيادهم ، وقبلي بدوي عند الأمير العربي البربري ، كما لا يشترط على الإنسان أن يصنع المعجزات ، وإنما قام بتصحيح كثير من المفاهيم التي أغرقت في بحر من الجهل واللامبالاة والفوضى والشكلية . إنه لم يجدد الفكر الديني أو الفكر العربي فحسب ، بل قام بتحديد العمل الديني بالمعنى الواسع للكلمة ، ونفهم من

كلمة عمل ديني واسع : الإصلاح الاجتماعي والسياسي والاقتصادي والعقائدي . إنه صاحب الروح السوسولوجية الجديدة المتحررة من كل مذاهب إلا مذهب ميدان نشدان الحقيقة (25).

ونافذة القول أن بناء الحضارة عند "مالك بن نبي" كل متكامل يعبر عن نظرة شمولية تشمل جميع مظاهر الحياة المادية و الروحية ، بل و بلغة المنطق يمكن اعتبار نظرتة للحضارة نظرة شاملة جامعة ، ونستشف ذلك من خلال معادلته الشهيرة :

حضارة = إنسان + تراب + زمن .

وقد طبق على هذه المعادلة آليتين هما:

1- المنهج التحليلي:

حينما حلل الحضارة فيه إلى عناصرها الأولية ثم صاغها في شكل معادلة

رياضية ذات متغيرات ثلاث هي: حضارة = إنسان + تراب + زمن

2- المنهج التركيبي:

وضح فيه كيف أن هذه العناصر الأولية تبقى ساكنة لا تتحرك و الفكرة الدينية أو البذرة الروحية هي التي تحدث ما

يسمى بالشرارة في محاولة لإثارتها.

الهوامش :

1-مالك بن نبي: شروط النهضة ، ت/ عبد الصبور شاهين ، ط/1969، دار الفكر، بيروت ص 124.

2-محمد محمد حسين: الإسلام والحضارة الغربية ، مؤسسة الرسالة ، ط/5 بيروت 1998 ، ص 5 - 6.

3-مالك بن نبي: ميلاد مجتمع ، شبكة العلاقات الاجتماعية ، ت / عبد الصبور شاهين ، دار الفكر ، ص 26 .

4-الشروق العربي: مقال بقلم محمد الهادي الحسني ، بعنوان "في ذكرى فقيه الحضارة ، العدد 301 ، التاريخ 001/10/30 ، ص 15 .

5-مالك بن نبي: ميلاد مجتمع نفسه ، ص 15.

6-مالك بن نبي: المصدر نفسه ، ص 15

7-مالك بن نبي: المصدر نفسه ، ص 25

8-مالك بن نبي: المصدر نفسه ، ص 23.

* حديث شريف : رواه أبو داود وأحمد عن ثوبان رضي الله عنه .

9-مالك بن نبي : وجهة العالم الإسلامي ، ت/ عبد الصبور شاهين ، ص 192.

10-لوثروب بستودارد: حاضر العالم الإسلامي ، ت/عجاج نوهيضي، دار الفكر بيروت، ط/3-197، ص 259 - ج1.

11-أبو بكر جابر الجزائري : العلم والعلماء ، دار الشهاب ، باتنة ، 1985 ص 112 .

12-المرجع السابق نفسه : ص 112 .

*البقرة: الآية 143.

13-عبد الله شريط : معركة المفاهيم، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر، ص 59 .

14-محمد الغزالي : ظلام من الغرب ، دار الشهاب للطباعة والنشر ، باتنة ، 1986 ، 226، 227.

15-مالك بن نبي : وجهة العالم الاسلامي ، ت/ عبد الصبور شاهين ، دار الفكر -، ص 87

16- مالك بن نبي: المصدر نفسه - ص 90

17-مالك بن نبي : مشكلة الثقافة في العالم الإسلامي ت/ بسام بركة ود/ أحمد شعبو ، دار الفكر دمشق ص 135.

18- مالك بن نبي: شروط النهضة ، ت/ عبد الصبور شاهين ، ط/ 1969 ، دار الفكر ، بيروت 124 .

- 19- يوسف القرضاوي : الحل الإسلامي فريضة وضرورة الصحوة الإسلامية ، الدوحة 1974 ص8 .
- د/ شاخت Horace -Schacht اقتصادي ورجل سياسي ألماني (1877 - 197) شغل العديد من المناصب في ألمانيا (رئيس البنك المركزي - وزير الاقتصاد ثم عمل مستشارا اقتصاديا لدى حكومات دول عديدة منها سوريا - إندونيسيا - إيران - مصر .
- 20- مالك بن نبي : المسلم في عالم الاقتصاد ، دار الشروق ، ص 82 .
- 21- مالك بن نبي : المصدر نفسه، ص99 .
- 22- مالك بن نبي: ميلاد مجتمع - ت/عبد الصبور شاهين ، دار الفكر ، 1974 ، ص26.
- 23- المصدر نفسه ، ص 16 .
- 24- المصدر نفسه ، ص 16.
- 25- عبد اللطيف عبادة ، صفحات مشرقة من فكر مالك بن نبي ، دار الشهاب للطباعة والنشر ، باتنة ، الجزائر ، ص 24